القيادة الأميركية لم تأخذ بمشورته وطبّقت سياسة شجّعت على التمرد

فريق العراق الأحمر.. فرصة كبيرة ضائعة

خلاصة تقريرها أكدت أن كثيراً من العراقيين كانوا مخيبي الظن بحكومتهم والتحالف

قبل سبعة عشر شهرا من إعلان الرئيس جورج دبليو بوش إرسال خمسة ألوية إضافية إلى العراق لدعم القوات الموجودة فيه العام 2007، تجمّع فريق من الضباط والمحللين المدنيين في بغداد لمراجعة الإستراتيجية العسكرية الأميركية هناك.
في الخطاب الذي ألقاه في شهر حزيران 2005 في فورت براك، أخبر بوش الأمة الأميركية بان حرب العراق كانت صعبة لكن بالإمكان كسبها، وقال "يمكن تلخيص إستراتيجيتنا بالشكل التالي: اذا وقف العراق على قدميه فسنستريح، لقد حققنا تقدما لكن مازال أمامنا عمل كثير علينا انجازه".

□ ترجمة المدى - عن: فورين بوليسي

لكن عند اجتماع الفريق الأحمر الذي كان يعرف بمجموعة المراجعة في آب من ذلك العام توصل إلى استنتاجات مختلفة، حيث جاء في تقرير الفريق "يعتقد الكثير من العراقيين بان حكومتهم ومعها التحالف قد خيبا ظن الشعب العراقي". ليس هذا فقط بل إن الفريق قد أكد أن الإستراتيجية التي دعمها الرئيس بوش بكل ثقة ستثقل كاهل العراقيين بمشكلة لا يمكنهم التعامل معها. قد ينتهي الأمر بالقوات العراقية إلى أن تتخلى عن الأرض لصالح التمرد في وسط العراق وغربه وربما حتى في بغداد. لذا فهناك حاجة الى إستراتيجية جديدة لمواجهة التمرد، جديدة في المفهوم وليس في الموارد. وقد تم تجاهل المشاكل التي عرضها الفريق وعلاجها. كان الفريق واحدا من أهم فرص الحرب الضائعة.
تزخر سجلات التاريخ العسكري بإخفاقات المخابرات وفشلها –إخفاقات لم تكن متوقعة نتيجة الجهل الثقافي والتمني والافتقار إلى المصادر. لكن الملفت للنظر في السنوات الأولى للحرب الأميركية في العراق هي تلك الحلقات التي شخّص فيها المسؤولون المشكلة بشكل صحيح واقترحوا إستراتيجيات جديدة تجاهلها الجنرالات ومعاونو بوش الذين تشبثوا بخطتهم المتعثرة.
نقاط التحول الضائعة تلك كان يمكن ان تقلص فترة الصراع وتفسح في المجال لتشكيل حكومة عراقية اكثر شمولية في وقت كانت الولايات المتحدة في ذروة قوتها في البلاد. لا يمكن لأحد ان يجزم ما كان سيحدث، لكن من المعروف ان بعض التوصيات التي رفضت اثبتت فعاليتها عند تنفيذها بعد سنوات من ذلك التاريخ. حتى اليوم مازالت بعض الفرص الضائعة غير معروفة بشكل واسع، ومن بين كل الحزبيين الذين يتجادلون حول حرب العراق، يبدو ان حفنة فقط من المطلعين تعرف ما الذي حدث خلال تلك اللحظات المصيرية. فمثلا، مع تطور اعمال التمرد في العام ٢٠٠٣ قامت مجموعة من الضباط في خلية استخبارات عسكرية اميركية في بغداد بتطوير خطة للعمل مع عشائر محافظة الانبار غرب البلاد الا انها لم تنفذ ابدا. كما اجتمعت العقيد كارول ستيوارت مع مجموعة من شيوخ الانبار وابتكرت خطة لإشراكهم في العمل، حيث كانت مناطق الصراع في الرمادي والفلوجة ستعتبر "منطقة أمن عشائرية" مع تخويل شيوخ العشائر مسؤولية حماية مناطقهم وتزويدهم بالعجلات والعتاد والمال لدفع رواتب رجالهم الذين سيطلق عليهم "حرس الانبار".
كان مجمل البرنامج سيكلف ثلاثة ملايين دولار على مدى ستة أشهر –وهو جزء ضئيل من اموال إعادة إعمار العراق التي بلغت الملايين– لكن عندما أوجزت ستيوارت فكرتها لأحد المعاونين في سلطة الائتلاف المؤقتة أخبروها بان سلطة الائتلاف لم تخطط لاعتبار العشائر جزءا رسميا من الهيكل الأمني في العراق. غادرت ستيوارت احد الاجتماعات محبطة وهي تدمدم "إذا لم تعمل الولايات المتحدة مع العشائر في العراق الجديد، فأين سيكون هذا العراق الجديد؟ في المريخ؟".
لم تفلح ستيوارت في نقاشاتها مع كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين في العراق، فماتت الفكرة على الرفوف ولم تحيا الا بعد ظهور "صحوة الانبار" بعد ثلاث سنوات.
هذا السرد يستند على مقابلات مع مسؤولين سابقين من الاميركان والحلفاء وضباط عسكريين، لكن قبل ذلك جاء تقرير الفريق الأحمر المدفون الذي تجاهلوا فيه مجموعة مختارة من الضباط متوسطي الرتب ممن تحدوا التناقض السائد حينذاك.
يعود أصل الفريق الاحمر الى تعيين زلماي خليل زاد سفيرا للولايات المتحدة في العراق، والذي بدأ بالتفكير مجددا بالموقف العسكري هناك. بعد فرزه الخبراء راح يفكر بكتاب اندرو كريبنفيتش عن تجربة الجيش الأميركي في فيتنام، وهو كان من دعاة مكافحة التمرد. خلال جلسات الاستماع الخاصة بالمصادقة على تعيين خليل زاد في مجلس الشيوخ سأل باراك اوباما –السيناتور المبتدئ عن الينوي حينها– خليل زاد ما إذا كان دحر التمرد يستغرق ١٠ او ٢٠ سنة، فرد عليه مطمئنا ان الأمر يستغرق اقل من ذلك بكثير. بعد وصوله الى بغداد في تموز وافق خليل زاد والجنرال جورج كيسي قائد قوات التحالف حينذاك على المراجعة الداخلية التي كان من المقرر تنفيذها من قبل فريق من ثمانية من المسؤولين المدنيين والعسكريين.
شارك العقيد بروس رايدر الستراتيجي المسؤول عن الجهد العسكري، في رئاسة هذا المجهود عن الجيش، أما الباقون فكانوا ضابط استخبارات بريطاني وضابط استرالي واحد مخططي كيسي. قاد الجانب المدني مارين سترمكي مستشار خليل زاد، كما كان احد محللي وكالة المخابرات المركزية عضوا في الفريق. التقى خليل زاد بالمجموعة واوضح المسائل المطلوب النظر فيها والتي كان أهمها: ماذا نحتاج من اجل "قصم ظهر" التمرد في عام واحد و"دحره" في ثلاث سنوات؟ كان المطلوب انجاز مجمل المراجعة في ٣٠ يوما. رغم ان كيسي قد وقّع على انجاز الدراسة، فانه كان مقتنعا بان خطته تسير على الطريق الصحيح ولا تحتاج الى اصلاحات جذرية. كان يدعم جهود مكافحة التمرد عن طريق تكثيف القوات في مدينة تلعفر شمال العراق وفي مدينة القائم الحدودية غرب الانبار كوسيلة لمنع تدفق المقاتلين الاجانب من سوريا الا ان ذلك كان استثناء من خطته الاوسع في سحب القوات الاميركية تدريجيا وتسليم مهام القتال الى العراقيين. كانت اكثر من إستراتيجية خروج من العراق بالنسبة لكيسي، كانت وسيلة لمكافأة وتشجيع وحث العراقيين على التحرك. المفارقة، كما ذكرها كيسي، كانت ان على الولايات المتحدة الانسحاب لكي تنتصر.
اثناء عمل رايدر وبقية افراد الفريق الاحمر في تقديراتهم خلال شهر آب، شعروا بان الجنرال لديه رأي مختلف حول المشكلة. كتب العقيد في مذكراته "هناك قضية جوهرية تدور حول ماذا نحاول ان نحقق. الجنرال كيسي يعتقد باننا نقوم بتطوير القوات الامنية العراقية لذلك يمكننا تسليم مهام القتال للعراقيين، اما السفير فيعتقد باننا هنا لدحر التمرد".
في الواقع كان تشخيص الفريق الاحمر للحرب بعيدا كل البعد عن كيسي، كما استنتج الفريق ان جهود دحر خطط المتمردين لم تكن حاسمة، حيث تمكن العدو من الاحتفاظ بحرية الحركة. الكثير من العراقيين لم تكن لهم ثقة بقادتهم، والاكثر من ذلك ان القوات العراقية التي كانت لاتزال تحت التدريب لم تتلق تدريبات في محاربة التمرد. جاء في التقرير "كانت القوات الامنية العراقية تنهض بسرعة كبيرة. هذا انجاز كبير، إلا أن مهمة القتال تحتاج الى قوات مستديمة وقيادات قوية"، ثم أن برامج الإغاثة الأميركية لم تكن تصل الى المناطق السنية.
الأهم من ذلك لم يكن الفريق يعرف كيف ستعمل الخطة: "الخطة الحالية تعتمد على القدرة على قمع التمرد وتقليصه بحيث تتمكن عندها القوات الأمنية العراقية من التعامل معها، وذلك يستلزم تقليص التهديد قبل نقل السيادة. العمليات الجارية لم تنجح في قمع مستوى التمرد وان خطة الحملة لا توفر مداخل جديدة او مختلفة واعدة بهذا الخصوص". فإذا كانت القوات الأميركية لم تفعل الكثير بهذا الشأن، فبلا شك أن القوات العراقية ستكون أسوأ".
اثبت حجم القوات العراقية المقرر انه غير كاف. هذه القوات التي كانت لا تزال غير جاهزة سيقع عليها عبء الأمن في ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ مع تمويل غير كاف وخبرة وتدريب وتجهيزات قليلة".
كانت التداعيات السياسية لتلك الإستراتيجية الفاشلة كبيرة جدا. وقد خلص التقرير إلى أنها شجعت التمرد لدرجة صار الهدف الرئيسي للاميركان هو فك ارتباطه ومغادرة العراق. نتيجة لذلك قلت احتمالات عقد المتمردين لصفقات سياسية كانت مطلوبة لدعم العراق الجديد. ومن المحتمل أن يفقد العراقيون الذين وقفوا مع الاميركان ثقتهم بالتحالف. كما أن الدعم الشعبي في الولايات المتحدة يمكن ان يكون ضحية أخرى، فربما يتساءل الرأي العام ما إذا كانت النتائج المشوشة تستحق كل هذه التكاليف خاصة وان النصر لم يكن هو الهدف.
بعد تقدير المشكلة، اقترحت المجموعة مدخل "بقعة الحبر" في المناطق التي سيتم تأمينها وتطويرها سياسيا حتى يتم توسيع المناطق الآمنة على طول البلاد. كان مفهوم عزل السكان عن التمرد مبدأ تقليديا في محاربة التمرد. افترض الفريق الأحمر بان القوات الاميركية الوحيدة المتوفرة هي نفسها الموجودة تحت اليد، مما كان يعني أن من المستحيل تغطية البلاد بأكملها. لذلك اقترح تركيز القوات في مناطق معينة. فمثلا، بإمكان القائد استخدام الأمن لغاية انتخابات كانون الاول القادمة لتأسيس بقعة حبر أولية، ربما في بعقوبة او في الفلوجة. مع تأسيس المزيد من بقع الحبر في ٢٠٠٦ فإنها ستربط في "حملة النهرين" للسيطرة على المراكز السكانية على طول دجلة والفرات.
بدون تعزيزات من الولايات المتحدة فان المهمة ستكون صعبة جدا. إلا ان إحدى المعوقات كانت البيروقراطية. لقد رعى كيسي الجهود السابقة للفريق الاحمر ورأى ان التقرير هو وسيلة لجر السفارة اكثر باتجاه مسعى الحرب، لكن عندما اقترح الفريق الاحمر اجراء تغييرات جذرية على الإستراتيجية العسكرية كان ذلك اكثر مما ساوم عليه كيسي. اقترح الفريق الاحمر حملة لثلاث سنوات لدحر المتمردين وقدم خطة لتركيز القوات الأميركية في مناطق تكاثر المتمردين وهو ما لم يتوافق مع رؤية كيسي الخاصة بتسليم مهمة القتال للعراقيين وتقليص القوات في ٢٠٠٦ و٢٠٠٧. عندما حان وقت تقديم الفريق ايجازا لبعض استنتاجاته في ٢٣ آب، اوضح كيسي بانه يوافق على عقلانية الكثير مما جاء في التقرير. بعد أسبوعين جاء احد كبار ضباط كيسي الى رايدر وقال بان الجنرال قد سمع بان الفريق الأحمر تعرض لضغوط من اجل ان يتماشى مع مدخل بقعة الحبر التي رفضها رايدر.
من الواضح ان كيسي لم يعط وزنا كبيرا لتقرير الفريق، وذكر فقط بان لديه بعض المقترحات المفيدة عن كيفية دمج جهود التحالف الاقتصادية والسياسية والعسكرية. في كانون الاول ٢٠٠٥ سيقوم كيسي بمراجعة تقدم الحملة التي استنتجت بان هناك تفاؤل تجاه كل التحديات. مع ذلك فقد جلب خليل زاد نسخة من تقرير الفريق الأحمر الى واشنطن وذكرها لستيفن هادلي مستشار بوش للامن القومي الذي اقترح رفعها عبر القنوات العسكرية. لكن مع معارضة كيسي للفكرة لم يكن ذلك محتملا. احد أعضاء الفريق من البريطانيين مرّر نسخة الى مراجعه واخذت طريقها الى رئيس الوزراء البريطاني توني بلير. اخيرا اختفى التقرير تماما عن الأنظار.
الفشل في مواجهة الحقائق المريرة عن الإستراتيجية الاميركية المتعثرة في العراق عام ٢٠٠٥، كانت له عواقب كبيرة. قرار بوش النهائي بالبدء بإدامة زخم عسكري عام ٢٠٠٧ وتعيين بترايوس قائدا عاما كان السبب في إنقاذ العراق من حرب اهلية وخيمة. نجحت إستراتيجية ادامة الزخم –عكس جميع التوقعات– في تقليص القاعدة في العراق وقمع العنف الطائفي، كما انها كانت حافزا للصحوة السنية التي ستشق طريقها من الانبار الى المناطق المحيطة ببغداد ومن ثم الى العاصمة العراقية نفسها. لكن لو كان تغيير الإستراتيجية قد حصل مبكرا، لكانت ادامة الزخم قد أدت الى تقدم اكثر في تأسيس حكومة عراقية اكثر شمولية والى تحسين الاداء الضعيفللوزارات العراقية –وهي امور لا تزال تربك العراق اليوم– ولكانت تلك المشاكل قد عولجت بوقت اسرع في بيئة أمنية جيدة عندما كان النفوذ الأميركي في ذروته. إدامة الزخم المبكرة كانت ستحفظ أرواح البشر والأموال.

مقتطفات من كتاب جديد بعنوان "نهاية اللعبة" عن الأيام الأخيرة لأميركا في العراق
ميشيل غوردن، الجنرال برنارد ترينر، ويسلي مورغان